DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الثاني عشر

مؤامرة دنيئة

في أوائل شهر يناير كنت برفقة عائلتي في منطقة «شروبشاير» طلبني المستر إيدن لمقابلته على جناح السرعة من أجل تبادل الآراء ووجهات النظر في أحد المسائل الخطيرة.

وفي اليوم التالي توجهت لمقابلة المستر إيدن.

كانت أمارات واضحة على معالم وجهه. وخطورة الأمر بادية لا تحتاج لبرهان خاصة في تصرفاته، وما كدت أجلس في مكتبه حتى أسرع يقول : « لقد تأكدنا بما لا يدع مجالاً لأدنى شك - مع بالغ الأسف - وجود ثغرة كبيرة للغاية، وهي أن الأميرال موزيليه على اتصال خفي بحكومة فيشي، كما أنه كان يعمل لاطلاع دارلان على خططنا التي جهزناها لمهاجمة « داكار » وتسليم الغواصة « سيركوف » إليه أيضاً..

لم يكن بوسعنا سوى إلقاء القبض عليه بعد أن تأكدنا، ومن ثم فإن الأميرال موزيليه حالياً رهن الاعتقال، ونحن بغير شك نعرف يقيناً ما لهذا الأمر المؤسف من آثار وخيمة في نفوسكم وفي نفس الشعب الفرنسي، ولكن الضرورات أرغمتنا على تفعيل هذا الأمر ».

ثم بدأ السيد إيدن يطلعني على بعض المستندات والوثائق التي تثبت وقوع ما لم يكن في حسبان أي أحد وكلها من أسف تؤكد ضلوع السيد روزوي رئيس بعثة السلاح الجوي الفرنسي في بريطانيا سابقاً في عدة توقيعات بخط يده شخصياً فضلاً عن أنها تحمل شعار فرنسا الحرة وممهورة بختم القنصلية الفرنسية.

كما أخبرني المستر إيدن بأن أحد رجال الاستخبارات قد عثر عليها حين كانت في طريقها من روزوي إلى الولايات المتحدة الأمريكية لنقلها إلى فيشي كما أن التحقيقات قد أظهرت بوضوح جوهر الحقيقة ولم يكن من عملية الاعتقال هذه أي مفر..

أصابني ما يشبه الدوار أمام هذا الأمر الخطير ولكن.. لم أقف زائغ البصر وتعديت ببصيرتي كل احتمال، وأوضحت للسيد إيدن رأيي في أن الأميرال موزيليه غير مدان بل بريء من هذه الجريمة شكلاً وموضوعاً..

وقررت أن أتولى إجراء التحريات الكاملة بنفسي.

وسرعان ما ظهر لي في البداية.. فكرة إعداد وتحفيز هذه الخطة على يد رجال المخابرات الإنجليزية أنفسهم، ومحاولة إلصاقها إلى حكومة فيشي، ولكن لم أعتد بها.. ومن ثم سلكت مسلكاً آخر.. واكتشفت سهولة حصولها بواسطة أحد رجال حكومة فيشي نفسها وذلك بوضع تلك القنبلة الموقوفة ليتم تفجيرها في وجه حركة فرنسا الحرة.

ولم أتوان عن مسعاي في إجراء تحرياتي بهدف الوقوف على كبد الحقيقة، بعد ذلك توجهت للقاء وزير الخارجية مرة أخرى وأبلغته بأن الوثائق التي لوح بها أمامي واعتمد على الأخذ بها في توجيه أصابع الاتهام إلى موزيليه والزج به وراء القضبان إنما هي ملفقة ومزورة جملة وتفصيلاً.. كما أن الاعتقال لم يعد هناك مبرراً لوجوده حتى تلك اللحظة، ومن ثم فإنني أرى وجوب إطلاق سراحه على الفور ومعاملته بشكل يتناسب مع مكانته لحين ثبوت أدلة إدانته أو براءته..

ولكن كان المستر إيدن الذي يتصف باللباقة قد أبدى رفضه بأسلوبه الراقي متذرعاً بتمسكه بدقة وصرامة التحريات الإنجليزية.

وقدمت احتجاجي برسالة ثم بمذكرة دون أية نتيجة، ثم ذهبت للقاء اللورد دادلي بلوند أميرال البحرية الإنجليزية وأبلغته بالأمر حسب ما أراه.. ورحت أذكره بقانون معاملة سادة البحار الدولي، ورجوته التدخل المباشر والعاجل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وقابلت بعد ذلك الأميرال موزيليه في سكوتلنديارد، ولم يسمح له بلقائي من قبل

وأكدت له عدم تصديقي بالتهم الموجهة إليه.

وظهرت أمامي قضية شديدة الأهمية - كما رأيتها - تتلخص في استدعاء شخصين من البريطانيين ثم ضمها إلى جهاز مخابراتنا وفقاً لرغبة عارمة من المخابرات الإنجليزية.

وسرعان ما تبخر الشك وبرزت براءة الأميرال لا يشوبها شائبة، وذلك لما انتاب هذين الرجلين من هلع وخوف عند بداية التحقيق معهما، وتأكد لدي بشكل قطعي أن هذه التهمة لفقتها له المخابرات الإنجليزية بهدف العزف على أوتار كفاحنا ونضالنا من خلال اتهام الأميرال موزيليه حتى نظهر أمام العالم في صورة الضعفاء، وتحقق المخابرات بعد ذلك ما تشاء.

ومع ذلك فقد أوضحت للجنرال سبيرس إصرار فرنسا الحرة على قطع جميع علاقاتها مع بريطانيا إذا مضت في اعتقال الأميرال موزيليه دون وجود دليل واقعي لإدانته وإني أمنحكم من الآن مدة ثمانية وأربعين ساعة لإطلاق سراحه.

كانت الصورة التي رسمتها للحكومة البريطانية عن براءة الأميرال موزيليه جلية لا تحتاج إلى أي جهد، ومن ثم عاد الجنرال سبيرس إليَّ في نفس اليوم على عجل يخبرني بنبأ اعتقال الرجلين المزورين اللذين اخترعا هذه التهمة، وأنهما الآن رهن التحقيقات الجادة والدقيقة لنيل جزاء ما صنعوا كما أن الأميرال موزيليه على وشك الخروج من محبسه الآن.

بعد ظهر اليوم نفسه أبدى لي كل من ونستون تشرشل وإيدن أسفهما نحو السيد موزيليه، وتعهدا أمامي بإصلاح كل شيء حرصاً من بريطانيا على كرامته بعد العار الذي لحق به.

وبالفعل فإني أقر هنا وأعترف بشجاعة : أن الحكومة البريطانية قد أوفت بما ألزمت نفسها به أمامي.

ففي اليوم الخامس عشر من شهر يناير تم الاتفاق بيني وبين المستر إيدن وزير الخارجية البريطانية على إعادة ترتيب وتنظيم العلاقة بين الهيئات البريطانية الحكومية

وحركة فرنسا الحرة، وكان هذا الاقتراح يدعوا إلى أن أبناء فرنسا الحرة لا يخضعون إلا للنظم والقوانين والتشريعات الفرنسية لا البريطانية ومحاكمها، وهو الاقتراح الذي أدى إلى فصل تسلط البريطانيين علينا.

من هنا استطعنا توظيف هذه الظروف، ودعونا الإنجليز إلى مائدة المفاوضات الاقتصادية والتجارية بصورة خاصة.. كما أن هذه المفاوضات قد تمخض عنها معادلة الجنيه الإسترليني بقيمة قدرها مائة وستة وسبعون فرنكاً فرنسياً وهي القيمة التي كانت قائمة قبل انعقاد الهدنة بين حكومة فيشي والألمان.

ورغم المصاعب والشدائد التي واجهتنا استطعنا تأسيس بنك خاص لفرنسا الحرة في لندن أطلقنا عليه اسم « البنك المركزي لفرنسا الحرة » كانت أولى مهامه تتعلق بتنظيم رواتب ومصروفات الحركة، فضلاً عن جمع الأموال الواردة إلينا من الهيئات وعائدات المستعمرات والتبرعات، بالإضافة إلى الأموال التي قمنا باقتراضها من المالية البريطانية..

من خلال هذه الخطوات السريعة المتعاقبة قطعنا الطريق على إنجلترا فيما يخص دس أنفها في شؤوننا - وخاصة الشق المالي - مما أدى إلى تقوية أواصر الوحدة بيننا وأصبحت ظروفنا أفضل من السابق بعد أن كانت قلة الموارد تشكل لنا حجر عثرة في طريقنا الطويل.

أمام كل هذا عادت بنا الذاكرة رغم ما بلغناه من تقدم ملموس إلى قلب فرنسا التي ترزح وطأة الهدنة المجحفة، وقررنا القيام بعمل حاسم يرد لوطننا العزيز الغالي عزته وكرامته ولسيدتنا فرنسا سيادتها وليمضي بها صوب طريق الخلاص.

لكننا كنا نتميز بغموضنا الواسع في هذا المضمار، أضف إلى ذلك كل ما كان يواجهنا من هواجس وتحديات ومخاطر التي حاصرت عملنا الذي كنا نتمكن من خلاله بترهيب العدو من الخلف وتقوية عزيمة المقاومة في الداخل.

ورغم العتمة والظلمة الكالحة كان بصيص الأمل يلوح لنا في الأفق البعيد ففي عام ١٩٤٠ وفي الفترة التي تقع بين الحرب العالمية الأولى والثانية كان تنظيم العمل السري يخطو نحو طريق الواقع الذي لابد منه، حيث تم إعداد مجموعة رائعة من الصبية للقيام

بتلك الأعمال بواسطة الإعداد والتأهيل النفسي عبر الإذاعة والصحف والسينما والمسارح التي كانت تعرض صراحة أساطير وخوارق الأبطال الذين كانوا يبذلون النفس والنفيس من أجل إنقاذ أوطانهم التي يعرقل نهضتها الاستعمار المستبد، وأضحى هذا العمل الخفي يمضي بدقة متناهية داخل فرنسا رغم الصعوبات والمخاوف والفشل المتربص لإفساد مخططاتنا ورغم ذلك فقد أخفق الفشل في تحقيق مآربه وإن اشتدت الخطوب علينا.

أما المهمة الأساسية التي كنا نسعى إليها منذ البداية فهي إنشاء منظمة في قلب الوطن فرنسا.

وعادت مرة أخرى قصة اختلاف وجهات النظر مع البريطانيين إلى الظهور على السطح حيث كان همهم الأول هو كيفية الاستفادة من عملائنا داخل فرنسا وفقاً لمشيئتهم.

كانوا يبذلون جهدهم للاستفادة من المعلومات المتناثرة التي تأتيهم منهم لضرب العدو في مخططاته، وهذا هو أسلوبهم الشائع والمعروف في أعمالهم التخابرية.

أما هدفنا من هذا العمل أو المنظمة المنشودة فهو تأسيس منظمات وخلايا سرية تعمل في قلب فرنسا على ألا تنقطع اتصالاتها الدائمة بنا مع تقوية ارتباطاتها فيما بينها، الأمر الذي يقودنا إلى أروع النتائج التي نتطلع إليها.

وخلال وقت وجيز ظهر إلى الوجود المكتب المركزي للعمليات، ومهمته جمع المعلومات وتنظيم العمل بين مختلف العاملين بشكل سري، وبدأ هذا المكتب في إعداد العدة وتجنيد المتطوعين الذين توافدوا بكثافة حيث كان الاعتماد في التنقلات على الطائرات، وبعض السفن إلى جانب الغواصات.

وسرعان ما تم الوصول في زمن قياسي قصير للغاية حتى تم الوصول إلى تنظيم العمل أيضاً مع بعض القوات المسلحة داخل فرنسا بشكل دقيق.. الأمر الذي جعل كل العمليات تتزايد وتسير نحو غايتها المنشودة بشكل إيجابي سريع.

أضف إلى ما سبق فقد وجدنا أن من الضرورة وضع ونشوء كيفية العمل مع الإنجليز

بحيث تحافظ جميع أعمالنا على فرنسيتها وهويتها الوطنية على ألا تكون متصلة بأية سلطات أجنبية.

ومن هنا كانت الشرارة الأولى في اختلاف رؤيانا مع رؤى البريطانيين الذين كانوا يرون فائدة لا تنكر في مجالات المخابرات الفرنسية الخفية بحيث تقدم لها الكثير من الخدمات.

وكان الخلاف هو نتيجة عمل الإنجليز في الاستحواذ والسيطرة على عمليات الاستخبارات وجعلها على صلة وثيقة بهم مع إلحاق أفضل العناصر القائمة على تنفيذ المهام السرية التي أوكلت إليهم حتى إننا لم نستطع الحصول على رجال مخابراتنا العباقرة إلا بعد أن قدمنا احتجاجات وعرائض رافضة لهذه السلوكيات في ذات الوقت الذي كنا نطلب من رجالنا عدم التعاون مع أية جهة أجنبية إلا بعد موافقتنا على ذلك.

وكان طريق البريطانيين إلى هذا أنهم كانوا يظهرون للفرنسيين حسن نواياهم من خلال اتباع الأسلوب الإنجليزي الذي اشتهروا به، وقد اعتمدوا على ذلك بالمقولة الشهيرة التي طالما رددوها : « إن إنجلترا والجنرال ديجول شيء واحد فقط ».

ولكن سرعان ما تتبدد هذه السحب الغائمة حيث إن بريطانيا كانت حريصة على خدماتنا خاصة في هذا الشأن.

ثم وجدنا أن الاتصال بالفرنسيين هو أمر مستحب من أجل الاهتمام بسير العمل ودفعهم إلى الوقوف إلى جانب فرنسا الحرة، ولذلك استطعنا تنفيذ هذا الهدف من خلال دار الإذاعة البريطانية فقد سمحت لنا الحكومة بالبث عبر إذاعتها مدة خمس دقائق لمرتين فقط خلال أربع وعشرين ساعة في برنامج إذاعي بعنوان « الفرنسيون يتحدثون إلى الفرنسيين ».

كما استطعنا أيضاً تأسيس مجله باسم « فرنسا الحرة » وصحيفة تصدر بعنوان «فرنسا ووكالة للأنباء» باسم «وكالة فرنسا الحرة للأخبار».

ومع المضي قدماً في طريق النهوض والتقدم في كافة أعمالنا واجهتنا بعض الصعوبات التي أدت بنا إلى سوء التفاهم مع الحكومة الإنجليزية الأمر الذي جعلهم

يقاطعون برنامجنا عبر الإذاعة وكذلك الفنيين الموكول إليهم القيام بهذه المهمة.

لكننا لم نستسلم ومضينا في إذاعتنا بواسطة دار الإذاعة الخاصة بنا في « الكونجو برازفيل » على الرغم من الضعف والتواضع.

ولقد حاولنا أن نصلح الأمر ونقوي الإذاعة وقد تتطلب ذلك التوصية على أجهزة خاصة من أمريكا، وتحتم علينا لذلك أن نصبر مدة زمنية طويلة للحصول على هذه الأجهزة كما دعت الظروف أن نسدد قيمتها بالدولارات، فضلاً عن الاعتراضات التي واجهتنا من مؤامرات ومكائد داخل الولايات المتحدة الأمريكية وتم لنا توسيع مساحة بث إذاعة الكونغو في عام ١٩٤٣ وكانت نبراسا مضيئاً على طريق نضال وكفاح وجهاد فرنسا الحرة.

ومن الشجاعة أن أنقل بصراحة أن غالبية الرأي العام كانت لا تنتظر محطتنا، وإن حدث واستمعت إليها فالسلبية واللامبالاة والفتور سمات كانت قد ألقت بظلالها على هؤلاء الذين يسمعونها عرضاً في الوقت الذي كان الفرنسيون يرهفون السمع لإذاعتنا بحماس منقطع النظير حتى قد تبادر لذهني ضرورة توجيه رسالة إلى الشعب الفرنسي في شهر يونيو صور النساء والرجال والأطفال من أبناء فرنسا مهللين سعداء ليوم قريب يرتفع فيه العلم الفرنسي بكل عزة وكرامة كما كان دائماً في السابق.

لقد وجهنا هجوماً لاذعاً إلى اتفاقية « بيتان وهتلر » دون أن نخشى أية مخاطر قد تنجم من هجومنا العنيف.

ولكن كان الواقع يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن العمل الحاسم سوف يقربنا من ساعة الخلاص بشكل أسرع من البث الإذاعي، حيث أن الفرنسيين جميعهم كانوا ينتظرون هذه اللحظة بصبر طويل.

وبالطبع فإن جنوب إفريقيا هو الذي أثار انتباهنا وساعدنا على خوض المعركة بغير تردد ولذلك بعثت برقية إلى الجنرال ويفل قائد القوات الإنجليزية في الشرق الأوسط وسألته أن يعمد إلى جمع كافة القوات الفرنسية وجعلها صفوفاً في غاية النظام وإرسالها في الحال إلى الجنرال ليجنتوم لمساعدته في منطقة « جيبوتي ».

كما طلبت منه أن تشارك فرقة المشاة التي انضمت إلينا من قبرص لمساعدة البريطانيين بدعم من بعض الجنود الفرنسيين المتواجدين في مصر في الهجوم على « درنة » و« برقة » و«طبرق».

ولعلك أيها القارئ الكريم يمكنك أن تتخيل الفرحة العارمة والغبطة والسرور للشجاعة التي تجلت في الجنود بقيادة الجنرال ويفل في معركة « براين »...

بالإضافة إلى ما قد سبق وجدنا أهمية أن نرسل بعض الفرق إلى ساحل البحر الأحمر من أجل أن تشارك في المعركة هناك، وذلك في المنطقة الاستوائية الإفريقية.

وفي منتصف شهر يناير كنت قد أصدرت أمراً إلى كل من الجنرال كاترو ولارمينا للبدء في تنفيذ خطة تقضي بجمع بعض القوات قوامها فرقة من السنغاليين وكتيبة من رجال البحرية، إلى جانب مجموعة من الدبابات وبطاريات مدفعية فضلاً عن قوات لا بأس بها من كافة الوحدات وذلك بقيادة العقيد مونكلار.

وكان قد انضم إلى تلك القوات بعض الطيارين الذين أقبلوا علينا من قاعدة « رياق » في لبنان كما جاء بعضهم من تونس.

ولذلك قررت أن أبعث بعدد من الطائرات الحربية القاذفة للقنابل إلى الخرطوم، واتخذت كل من المدمرة سافورينان دي برازا والمدمرة « القومندان دوبوك » إلى منطقة البحر الأحمر، وتخيلت في نفسي براعة وإجادة القوات الفرنسية ومدى تأثيرها على سير المعارك وقلت في نفسي أيضاً : لو أن الصومال الفرنسي الذي يحتضن عدداً هائلاً من الجنود يقدر بعشرة آلاف من جنود فرنسا الحرة وفي حوزتهم كل ما يحتاجون إليه من ذخيرة وسلاح وعتاد ومؤن قد عاد إلى ميدان المعركة في الحبشة.

ولذلك أعدت المحاولة مرة أخرى في الإصرار على انضمام هذه المستعمرة الفرنسية إلينا.. أما في حال عدم الانضمام فقد قررت أن تظل القوات الفرنسية تقاتل بجانب الإنجليز مهما كانت النفقات باهظة.

ومن خلال تلك الروح العالية في دعم مهمة البريطانيين في منطقة الشرق الأوسط رأينا أنه ينبغي أن نتجه لفتح جبهة فرنسية في ليبيا.

وظهرت في الأفق خطوط جديدة، وأصدرت أمراً للجنرال دي لارمينا بوجوب الإسراع في احتلال « فزان » بوصفها أولى الحلقات التي دفعتني لاتخاذ مثل هذا القرار، وذلك بعد أن تبين لي سرعة الزحف البريطاني في ليبيا.

ولكن ما وقع أثناء ذلك في ليبيا أرغمني على التراجع عن هذه الفكرة... وكانت خطة الارتكاز للبدء في خوض غمار تلك المعارك هي الحلقة الثانية التي دارت في رأسي حيث إن العدو كان يستولي على مقاليد المبادرة فيما يتعلق بإستراتيجية الحرب.

لكننا على أية حال لم ندخر وسعاً في دراسة جميع الاحتمالات والتوقعات التي تمخض عنها ضرورة اشتراك قوات فرنسا الحرة في الحرب بشكل لا يدعو للتردد إطلاقاً، كما قررت أن أظل المتحدث الرسمي باسم فرنسا الحرة مهما كانت نتائج الهجمات التي يشنها الألمان وحلفاؤهم في العالم كله.

وفي بواكير شهر فبراير تلقينا أنباء تفيد بوصول بعثة ألمانية إلى سوريا برئاسة السيدين فون هينج وروزر.

لقد سبب وصول هذه البعثة قلقاً بالغاً في كافة البلدان العربية، خاصة تلك التي كانت معرضة لغزو الألمان وحلفائهم، وهو ما أدى إلى نشوء مناخ من الثقة أثناء مهاجمة كييف وأوديسا.

ورغم ذلك فإن خطر اليابان تصاعدت حدته في منطقة الشرق الأقصى.

لقد أصابتنا الحيرة في تحديد مدى هذا الخطر ومعرفة أبعاده، وما سينجم من ورائه وإذا كان القصد منه تعريض قواتنا إلى ممارسة الضغوط العنيفة حتى تتمكن من عرقلة وتجميد نشاط وفاعلية مجموعة ضخمة من القوات الإنجليزية ليسهل على الألمان والإيطاليين نشر قواتهما على الطريق صوب موسكو أو البحر الأبيض المتوسط.

وكان من الثابت أن اليابان تسعى على نحو أو آخر لمعرفة مدى سيطرتها على منطقة الهند الصينية بشكل عاجل وسريع، وهو ما قد يعرض بعض مستعمراتنا في بلاد « كاليدونيا » و « الهند » و « مدغشقر » إلى قمة المخاطر، وفي الوقت الذي لم أكن فيه قادراً على التقدم لعملية تساعد على تحطيم فكرة اليابان في مهدها وجدت أن التحلي بالصبر والتريث ضرورة يجب الالتزام بها في البداية حتى تتضح لي مواقف الحلفاء منها

والواقع أن السيد كازو[1] قد أخبرني أن أغلب المواطنين يميلون نحو حركتنا، وأن اليابان لم تعد قادرة على الوصول لأهدافها.

وكانت اليابان قد بدأت منذ ١٩٤١ في عملية على « سيام » لتتمكن من خلال ذلك من السيطرة على نهر الميكونج وكمبوديا ولاوس.

كما زعمت بأنها لها الحق الكامل في الإشراف على الأمور الاقتصادية في الهند الصينية، وبدأت بعد ذلك في بسط نفوذها على بعض مناطقها بقوة السلاح.

وقد أخبروني بتلك الأشياء تباعاً من رسل فرنسا الحرة في العالم وهم كثر، ولم يكن لدينا من المكر والحيلة لدعم ومساعدة الهند الصينية في مقاومة القوات اليابانية.

إن قوات فرنسا الحرة لا تستطيع لأنها لا تمتلك الاحتياجات اللازمة.

بريطانيا تباطأت في الإغاثة رغم أنها على قناعة بأن المد الاستعماري يجب أن يبدأ بالطرق على أبواب سنغافورة.

وكذلك بالنسبة للولايات المتحدة التي لم ترد أن تدخل في هذا الصراع من أية ناحية مادية أو حتى معنوية، ومن ثم لم تبرز أية بادرة منها من شأنها التدخل لحسم الموقف.

على أية حال لم تخب أبداً آمالنا في يوم من الأيام.. فقد أصدرت بسرعة بياناً بأن كل عملية بيع أو اتفاق أو حتى تنازل عن بعض الأراضي في منطقة الهند الفرنسية يعتبر كأن لم يكن.

وبدأنا العمل على بناء أواصر علاقات مع الدول الصديقة حتى لا تتحول إلى حكومة فيشي، كذلك بذلنا جهدنا من أجل تنظيم أعمالنا مع بعض الدول التي يتربص بها الخطر الاستعماري هذا في المحيط الهادي.

كما عملنا - وإن كان بغير أمل في بعض الأحيان - على تدشين خطة للدفاع عن الهند الصينية تشارك فيها كل من بريطانيا وأمريكا وهولندا، وكذلك كانت الخطة تحتوي على تنظيم عملية الحفاظ على «كاليدونيا » و« تاهيتي »، وذلك بالمشاركة بين أستراليا

(١) مدير المستعمرات الفرنسية.

ونيوزيلندا.

ومضت هذه الظروف القاسية التي لو تركت على الطبيعة لأدت إلى إصابة حركتنا بالشلل التام والفشل الذريع.. في اتصالها الدائم والذي لا ينقطع مع الإنجليز.. وإني أذكر صراحة مما يوحيه عليَّ واجبي من أنني اكتشفت أن بعض الانجليز ينسجمون مع كرامة الوطن كواجب مهما غلا ثمنه، وكان من بين هؤلاء الملكة والملك والمستر تشرشل والسيد أنطوني إيدن، فضلاً عن السادة : « جون أندرسون... وإيمري، وإدوارد كريج، وإليكياندر، وسنكليد، ولويد، وكرابنورن، وهانكي، وكريبس، واتلي، وكوبر، ودالتون، وبيفن، وموريسون، وبيفان، وبراكن» وبعض كبار الموظفين والعسكريين من أمثال : « فانسبارت، وكادو جان، وسترانج، ومورتون، وجون ديل، وإسماي، وباوند، وبورتال وغيرهم ».. كل هؤلاء كانوا يبذلون قصارى جهدهم في تفانٍ وإخلاص من أجل المصلحة الإنجليزية العليا حيث إن الخلاف في الرأي كان يباعد بينهم إلى حدود معينة حتى يوحدهم الخطر، حيث يلتفون حول وطنهم بطريقة تثير إعجابي وانبهاري بغير حسد.

ولكن هذا الالتفاف المثير للتأمل والإعجاب كان يدفع إلى مائدة المفاوضات بيننا وبينهم بالعديد من العقبات التي كان لها أثرها المهم في تجميد المفاوضات فترة من الزمن، ولأن البريطانيين كثيراً ما كانوا يسعون للحصول على ما يتطلعون إليه في استغلال واضح للظروف المتردية والمؤلمة التي كانت تحاصرنا في كل جانب على أمل أن نخضع لمطالبهم، ولكننا كنا نقف موقف الرافض المتصلب العنيد.. وتتجمد كافة اتصالاتنا معهم فلا يوجد هناك من يريد أن يستفسر عن أحوالنا وما نحتاج إليه بحيث يتضح للمراقب النابه أن صفحة فرنسا الحرة قد طويت من سجل الأحداث التي تعتلج في نفوس الإنجليز.

جدير بالذكر أن الإنجليز كانوا يعتمدون بذلك على ما يرونه من نزوع مألوف لدى الفرنسيين في الخضوع للأجانب.

وقد تبادر إلى أذهان الفرنسيين بأن فرنسا لا تعرف كلمة « لا » على وجه الإطلاق، ولذلك كنت أبدو في تلك المواقف متصلب الرأي حاد الطباع أمام مخططات الإنجليز

وعدم الامتثال لرغباتهم، مما أفسح المجال لبعض الإنجليز وبعض من رجالي على حد سواء إلى التساؤل غمزاً ولمزاً حول نقطة واحدة وهي : إلى أين يمضي هذا الإنسان ؟ ويوجهون الاتهامات إلى شخصي بأني ديكتاتوري الفكر متسلط النزعة مستبد الرأي.

لكن سرعان ما تعود الأمور إلى طبيعتها عند اندلاع أي هجوم، حيث نرى الإنجليز يدعوننا إلى طاولة الاجتماعات للتباحث في الأمر الذي طرأ، ويحققون بعض احتياجاتنا ويتراجعون عن التصميم العنيد على بعض متطلباتهم وتخرج الصحف في اليوم التالي تحمل أرق التحيات وآخر الأخبار الوليدة للجنرال ديجول وفرنسا الحرة.

ومهما يكن من أمر فإن احتمالات الحرب ظلت مسيطرة على تفكيري وأدركت أن العدو قد يدفعنا لمواجهته في إفريقيا والشرق الأوسط، وحرصاً على عدم الانزلاق إلى نزاع جاد مع الإنجليز وجدت أنه من الضروري الإسراع إلى هذه المنطقة.

وفي اليوم التاسع من شهر مارس استدعاني السيد ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني وأخبرني بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد وافقت على مشروع الإعارة والتأجير، ولذلك يمكن الحصول على السلاح الضروري للمهمات الضارية في مواجهة العدو.

لقد كان لهذا المشروع الأمريكي أبلغ الأثر في أنفسنا فضلاً عن أثره الطيب في نفوس المقاتلين، لأنه كان يعني تحول في مجريات الحرب بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية التي كانت لا تزال تقف موقفاً سلبياً نحو ما يجري على جبهة النزاع التي تفحمت واسودت حرصاً على الكرامة الوطنية ورفضاً للأطماع الاستعمارية.

وقبل بدء الرحلة طلب مني رئيس الوزراء أهمية التعاون مع سيبرس أياً كان حجم الخلافات التي اندلعت بيني وبينه فيما مضى، ولم أجد مبرراً حكيماً لرفض هذه الرغبة فاضطررت لقبولها حيث أنه اعتبر ذلك منة أمنحها له.

وحين أقلتني الطائرة أدركت أن فرنسا الحرة تملك جهازاً كبيراً صالحاً للعمل قوامه العديد من رجالنا الأفذاذ، مثل، كاسان، وبليغان، وبالوسكي، وأنطوان، وتيسيه وديجان، والفان، وبوريس وغريهم.. فضلاً عن أن عدداً من رجالنا الضباط الأشداء الذين كانوا يمثلون بالفعل الناحية العسكرية في جهازنا الكبير.. وعلى رأسهم بيتي وداسونفيل وانجبينو وبروسيه وبيرو أويبونو وفالان.

وقد تبين لي أيضاً أن كاترو يمسك بزمام السيطرة الفعلية في منطقة الشرق الأوسط، كما هو الحال بالنسبة للجنرال لارمينا في منطقة إفريقيا، وقد استطعنا ترتيب أعمالنا من خلال البعثات في جميع أنحاء العالم وفقاً للتخطيط التالي :

١. تعيين جارو - دومبال في الولايات المتحدة الأمريكية.

٢. دراجينليو ومارتان في كندا.

٣. ليدو في أمريكا الجنوبية.

٤. سوستيل في أمريكا الوسطى.

وقد كان لهذه البعثات أثرها في كافة أنحاء العالم كله.. وراحت تكبر وتترعرع تعزز صمودها مكائد ودسائس فيشي ويدعمها بعض التوترات والمشاحنات بين الرجال الفرنسيين القادرين، إذ سرعان ما تندثر لتصب في وعاء الإمبراطورية.

الجدير بالذكر أن أشير إليه - حيث أني أفتخر به - هو وسام التحرير الذي أصدرت قراراً في « برازافيل » بإيجاده فقد كان له أبلغ الأثر الطيب والإيجابي. حتى إن الفرنسيين راح أغلبهم يسارع من أجل الحصول عليه مهما كان الثمن.

وانتابني شعور غريب نحو فرنسا التي كانت تتطلع إلينا عبر البحار.

وفي أثناء زيارتي لكافة القطاعات والجبهات التي كانت تتحصن فيها القوات الإنجليزية اتضح لي أن الكرم الذي ظهر في مقابلاتهم لي في زيارتي السابقة وحفاوتهم قد أضحى إكباراً وتقديراً جلياً في نظراتهم وما بين رموش أعينهم.

كما أتاح لي المجال لدى هذه الزيارات.. أن أرى الإيمان بالمصير المشرق قد اتخذ صفة الصمود في النفوس، وأن الأمل الكبير قد شق طريقه إلى قلوب المؤمنين من الرجال المحاربين وبرز في الأفق هتافات العالم وأبصارهم تتجه إلى قوات فرنسا تولد من رحمها لتواجه العدو الغاضب وتدحره وتعود إلى فرنسا نفسها وهي ترفع رايات النصر وأعلام فرنسا الحرة.

لقد أصبحت فرنسا منذ ذلك الحين بلداً قوية.. عظيمة.